الأسس النظرية للمشروع الفكري لآسين بلاثيوس وأثرها على أعماله عن ابن حزم القرطبي - دراسة وتحليل[1]

إيناس علي أحمد

إن البدايات العلمية والأكاديمية الأولى للاستعراب الإسباني ترجع إلى كتابات باسكوال جاجينجوس أرثي (*Pascual Gayangos* y *Arce*) (١٨٠٩-١٨٩٧) الذي شغل كرسي الدراسات العربية في جامعة مدريد المركزية عام ١٨٤٣. منذ تلك اللحظة المهمة في تاريخ الاستعراب الإسباني بدأ المستعربون الإسبان في إرساء قواعد مدرسة وتقليد خاص بهم قائم على علاقة التواصل بين الأستاذ والتلميذ.

هذه العلاقات يمكن أن نراها بوضوح بين فرانسيسكو كوديرا زايدين *Francisco Codera Zaidín* (١٨٣٦-١٩١٧)، الذي شغل كرسي الدراسات العربية في جامعة مدريد المركزية عام ١٨٧٤، وتلاميذه خوليان ريبيرا تراجو *Julián Ribera Tarrago* (١٨٥٨-١٩٣٤) وميجيل آسين بلاثيوس (١٨٧١-١٩٤٤). ولقد ظهر هذا التواصل بين الأستاذ والتلميذ في الجيل التالي من المستعربين الإسبان الذين أسسوا مدرسة الدراسات العربية في مدريد وغرناطة عام ١٩٣٢. في مقر هذه المدرسة في مدريد، والذي كان مخصصًا للبحث فقط وليس للتدريس، عمل الأستاذ وتلاميذه معًا. هناك عمل الأستاذ آسين بلاثيوس مع تلاميذه أنخل جونثالث بالنسيا *Ángel González Palencia* (١٨٨٩ -١٩٤٩)، خوسيه أنخل لوبث أورتيث José *Ángel López Ortiz* (١٨٩٨-١٩٩٢) وسالفادور بيلا إيرناندیث (*Salvador Vila Hernández* ١٩٠٤- ١٩٣٦). لقد عمل كل منهم في تخصصه في التاريخ السياسي للأندلس، أو اللغويات أو تاريخ الأفكار، ولكنهم اشتركوا في اهتمامهم بكتابة مظاهر وأوجه مختلفة لتاريخ الأندلس.

لقد حقق آسين بلاثيوس تغيرًا أساسيًا في الدراسات العربية في إسبانيا ؛ لأنه استطاع أن ينجز مشروعًا فكريًا أصيلا خاصًا به، وهذا المشروع لم ينتبه إليه أي مستعرب إسباني قبل آسين بلاثيوس. لقد أفاد آسين من النظريات والمنهجيات العلمية التي ازدهرت في أوربا في النصف الثاني من القرن

[1] نوقشت هذه الرسالة يوم ٢٠ يناير ٢٠١٧ في جامعة كومبلوتنسى في مدريد، وتكونت لجنة الحكم أ. د. إدواردو منثانو مورينو الأستاذ في معهد التاريخ في csic (المجلس الأعلى للبحث العلمي) والمتخصص في تاريخ الأندلس (مشرفاً)، وأ. د. سها عبود حجار الأستاذة بقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة كومبلوتنسى في مدريد (مشرفاً)، وأ. د. بدرو مارتينث مونتابث أستاذ الدراسات العربية بجامعة اوتونوما(مناقشاً) ، وأ. د. خوان سيسينيو بيريث جارثون أستاذ التاريخ بجامعة كاستيا لا منشا (مناقشاً)، وأ. د. فرناندو رودريجث ميديانو المستشرق والأستاذ بمعهد لغات وثقافات البحر المتوسط في السيسيك (مناقشاً)، وأ. د. تيريسا جارولو أستاذ الأدب العربي بقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة كومبلوتنسى (مناقشاً)، وأ. د. إيميليو تورنيرو بوبيدا أستاذ الأدب العربي بالقسم نفسه (مناقشاً)، وحصلت الباحثة على درجة الدكتوراه بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف .

التاسع عشر في مختلف فروع المعرفة ليدعم أسس مشروعه الفكري بكل الأدوات العلمية الممكنة. وهذه الدراسة تحلل الأسس النظرية التي وظفها آسين بلاثيوس في أعماله، والأسئلة الرئيسة التي كان يطرحها، والمشكلات المتعلقة بالفكر الإنساني التي كان يرصدها. وعلى الجانب الآخر، تدرس الحلول التي كان يقترحها آسين بلاثيوس، والنتائج التي كان يتوصل إليها.

إن الأسئلة التي كان يطرحها آسين بلاثيوس تتعلق بكيفية كتابة تاريخ للثقافة وليس فقط للسياسة. فقد كان مهتمًا باكتشاف – وتوصيف– العلاقات بين الفترات المختلفة في التاريخ الإنساني والربط بينها وإقامة الصلات بين القديم والجديد. كان يتساءل عن إمكانية وجود رابط بين ما أنتجه الفلاسفة اليونانيون والآباء المسيحيون في الشرق والكتاب المسلمون في الشرق وفي الأندلس والكتاب الأوربيون في عصر النهضة وما تلاه. وإذا كان هناك رابط ، كان يسأل كيف يمكن أن نفهمَه ونَصِفَه، وما هي أهمية فهم تلك العلاقات بين الأفكار في أزمنة وبيئات مختلفة، وما أهمية دراسة أصل الأفكار وكيفية انتشارها.

طارحًا هذه الأسئلة، عدَّ آسين بلاثيوس تاريخ الثقافة *Kulturgeschichte* الأساس الذي يمكن من خلاله مناقشة كل هذه القضايا. تاريخ الثقافة هو مذهب ظهر في حركة التأريخ في أوربا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأعطى أهمية كبيرة لدراسة أوجه الحضارة والثقافة المختلفة بدلا من التركيز على دراسة الحروب والحياة السياسة فقط . من خلال هذا الاتجاه في كتابة التاريخ، ناقش آسين بلاثيوس موضوعات مثل حركة الأفكار في التاريخ وطبيعة هذه الحركة، وتفسير نشأة – وظهور– الأفكار والنصوص الأدبية. وعالج كذلك موضوعات مثل دور العوامل الثقافية والاجتماعية في كتابة التاريخ وكيفية انتشارها من بيئة لأخرى أو من دين لآخر. ومن خلال هذه القضايا والعناوين الكبرى، استطاع آسين مناقشة وتحليل موضوعات أكثر تخصصًا مثل تاريخ الأفكار الدينية والتصوف بين الإسلام والمسيحية. واستعان آسين بلاثيوس أيضًا بالنقد التاريخي *Crítica histórica* وتاريخ الأفكار *Historia de las ideas* كأساس منهجي لأعماله.

يدرس هذا البحث ما الذي كان يعنيه مشروع آسين بلاثيوس الفكري لإسبانيا في أوائل القرن العشرين وكذلك ما الذي أضافته دراسات آسين بلاثيوس لنصوص التراث العربي، أن يكون أحد مؤسسي الاستشراق الإسباني راهبًا مسيحيًا صاحب أفكار مُحافِظة مشكلة لم يتم تحليلها ودراستها بالشكل الكافي. لقد اعتبر جيمس مونرو، في كتابه *Islam and Arabs in Spanish Scholarship* المنشور سنة ١٩٧٠، أن جزءًا كبيرًا من المستعربين الإسبان في القرنين التاسع عشر والعشرين الذين يُقِرون بتأثير الإسلام في الثقافة الأوربية، ينتمون إلى التيار الليبرالي . أعتقد أن هذه القضية لها أبعاد أخرى وليست بسيطة. يحلل هذا البحث خطاب آسين بلاثيوس، أحد أهم مؤسسي مدرسة الاستعراب الإسباني في القرن العشرين.

تهدف الدراسة إلى تحليل الأسس النظرية للمشروع الفكري لآسين بلاثيوس والتغيير المهم الذي أحدثه مشروعه في تاريخ الاستعراب الإسباني. أدرس في هذا البحث كتابات آسين بلاثيوس، وخاصة كتابه عن ابن حزم ومؤلفه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" الذي ترجمه آسين بلاثيوس إلى الإسبانية كاملًا وسبقه بدراسة وافية عن ابن حزم وحياته ودراسة مفصلة عن كتابه "الفِصل"، والكتاب بعنوان "ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأفكار الدينية " (١٩٣٢-١٩٢٧)

Abenházam de Córdoba y su historia crítica de las ideas religiosas.

يذكر بلاثيوس أن كتاب الفِصل هو: "تاريخ نقدي للأديان، والفرق" ، "ويمثل أول دراســة نقديــة ومنهجية للمعتقدات الدينية الرئيسة للإنسانية ولكل الفرق الإسلامية، ويوضح بلاثيوس منهجه من خلال ما يأتي : "ومن أجل تقييم أدق للفضائل العلمية للكتاب رأينا أنه من المفيد أن يسبق ترجمته الإســبانية تمهيد يمكن فيه اعتبار كتاب ابن حزم من حيث علاقته مع سوابقه في الآداب المسيحية والكلاســيكية، تصورًا واستنباطًا عبقريا لثلاثة فروع من الدراسة التاريخية كانت قد ظهرت في القرن التاســع عشــر تحت مسمى تاريخ الأديان، وتاريخ العقائد، وتاريخ علم اللاهوت."[(١)]

منهج البحث

لقد اخترت المنهج الذي اقترحته سوزان مارشند *Suzanne Marchand* في كتابها المنشور عام ٢٠٠٩ *German Orientalism in the Age of Empire: Race, Religion and Scholarship*.

لقد درست مارشند كتابات المستشرقين الألمان في القرنين التاسع عشر والعشرين بوصفهم جزءًا من الحركة الثقافية والفكرية في أوربا في تلك الفترة. من هذا المنطلق، لا تضع مارشند الثقافة الأوربية في مواجهة الشرق. ولذلك لم تتبنَ مارشند رؤية إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، حيث يفسر سعيد حركة الاستشراق في ضوء نظرية ميشيل فوكو عن المعرفة بوصفها أداة السلطة، ويرى أن المستشرقين مهدوا للحركات الاستعمارية لإنجلترا وفرنسا في الشرق. مارشند تفكر في المعرفة ليس بوصفها سبيل للتحكم ولكن بوصفها طريق للحوار ونقد الذات وفهم الذات والآخر. إن المنهج الذي تقترحه مارشند لا يهاجم نظرية سعيد ولا يدافع عنها. إنه فقط يقدم طريقًا آخر لتحليل كتابات المستشرقين بوضعها في السياق الذي نشأت وأُنتجت فيه، وبوصفها جزءًا من الإنتاج المعرفي والثقافي في أوربا.

هذا البحث يتبنى المنهج الذي تقترحه مارشند لأني أرى أن النظرية التي طرحها سعيد ليست هي الأنسب لقراءة كتابات المستشرقين الإسبان وتحليلها ؛ لأننا لا نستطيع أن نقارن حركات الاستعمار الفرنسية والإنجليزية في الشرق بحركة الاستعمار الإسباني في المغرب. وكذلك فإنني أرى أن القراءة الأيديولوجية التي قدمها سعيد لبعض المستشرقين لا يمكن أن تفسر كل أعمالهم. لقد اخترت منهج مارشند لتحليل أعمال آسين بلاثيوس لأنه يدرس عمليات خلق المعرفة في كتابات المستشرقين ويربطها بالوسط والبيئة التي أنتجته وبعوامله التاريخية والثقافية والدينية والحركة العلمية فيه. هذا

(1)Asín Palacios, Miguel, *Abenházam de Córdoba y su historia crítica de las ideas religiosas,* tomo II, Ediciones Turner, S. A., España, segunda edición, 1984, pp. 7 y 9.

النمط من التحليل مناسب لفهم أعمال آسين بلاثيوس وقراءتها، فتكوين فكره كان عملية معقدة أثرت فيها عوامل شتى.

هذا البحث يدرس الأسس النظرية للمشروع الفكري لآسين بلاثيوس مقسمًا إياها جزئين رئيسين: تاريخ الثقافة بوصفها العنصر الموضوعي في هذا المشروع، و تاريخ الأفكار أو النقد التاريخي بوصه الجانب المنهجي. إن أعمال آسين بلاثيوس كانت تشكل جزءًا، ليس فقط من تاريخ حركة الاستعراب الإسباني، ولكنها كانت جزءًا من كل من السياقات الأربعة التالية: الوسط العلمي والفكري لأوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حركة الاستشراق في وسط أوربا، إسبانيا بما فيها من تيارات فكرية وسياسية وتاريخية واستعرابية، والتيارات الفلسفية المختلفة التي ظهرت في الكنيسة الكاثوليكية وخاصة اتجاه تجديد الفلسفة المدرسية *Neoescolástica* وتجديد فلسفة توماس الإكويني *Neotomismo*. إن البحث يبحث الأوجه المختلفة لتاريخ الثقافة وتاريخ الأفكار التي تظهر في كل من السياقات الأربعة وكيف أفاد آسين من كل منهم في فهم النصوص العربية.

بنية البحث:

لقد قسمت الرسالة أربعة أبواب وكل باب يضم مجموعة من الفصول، ثم النتائج وقائمة بالمصادر والمراجع.

الباب الأول بعنوان "**مقدمة عامة**" ويضم فصلين: الفصل الأول بعنوان "قواعد منهجية" وفيه عرضت لموضوع البحث ومنهجيته وأهداف الرسالة. الفصل الثاني بعنوان "آسين بلاثيوس وأعماله عن ابن حزم" ويضم ثلاثة مداخل: في المدخل الأول أدرس حياة آسين بلاثيوس لأنها المدخل للفترة التي كان يعيش فيها. وفيها درست تكوينه الأكاديمي والديني ومكانته في الاستشراق الأوربي. لقد قرأت أعماله الكاملة وكل الدراسات التي حللت هذه الأعمال. وكذلك قرأت أعمالًا عن تاريخ إسبانيا لفهم السياق التاريخي الذي كان يعيش فيه المستعرب. وقد زرت أرشيف آسين بلاثيوس المحفوظ في كل من الأكاديمية الملكية للتاريخ، والمجلس الأعلى للأبحاث العلمية والأكاديمية الملكية الإسبانية، والتي تحفظ مراسلات استقبلها آسين من شخصيات مختلفة في وقته مستشرقين ومؤرخين وغيرهم.

وقد خصصت المدخل الثاني لدراسة أعمال آسين بلاثيوس عن ابن حزم. ولأن الموضوع الرئيس للبحث هو دراسة – وتحليل– كتاب آسين بلاثيوس عن الفِصَل لابن حزم، فقد كان ضروريًا دراسة أعمال المستعرب عن ابن حزم لكي نرى تطور أفكاره فيما يخص مؤلفات ابن حزم. أما المدخل الثالث فهو عرض لسيرة ابن حزم كما كتبها آسين بلاثيوس في الجزء الأول من كتابه "ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأفكار الدينية " لربط ما كتبه آسين بلاثيوس عن حياة المؤرخ الأندلسي برأيه في كتابه.

الباب الثاني بعنوان "**تاريخ الثقافة في حركة التأريخ الأوربي وكتابات آسين بلاثيوس**" وهو يضم أربعة فصول. في الفصل الثالث، أدرس تاريخ الثقافة بوصفه اتجاه في التأريخ ظهر في البلاد التي تتكلم الألمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة بعد ثورات عام ١٨٤٨ حيث كان المؤرخون الألمان يبحثون عن هوية للشعب الألماني طبقًا لمفهوم الأمة والشعب والثقافة، وليس فقط

طبقًا للتعريفات السياسية ومفهوم الدولة. أدرس الموضوعات التي كانت يهتم بتحليلها المؤرخون الألمان في هذه الفترة وأدواتهم المنهجية وأهداف دراساتهم. في الفصل الرابع أدرس توظيف المستشرقين في وسط أوربا لاتجاه تاريخ الثقافة في أعمالهم عن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. وفيه أركز على استخدام المستشرق ألفريد فون كريمر *Alfred von Kremer* (١٨٢٨ – ١٨٨٩) لمصطلح تاريخ الثقافة خصوصًا في كتابه "تاريخ الثقافة في الشرق تحت حكم الخلافة" *Culturgeschichte des orients unter den kalifen*, Wien, 1877.

لقد كانت أعمال كريمر من مراجع آسين بلاثيوس الأساسية لمصطلح تاريخ الثقافة. في الفصل الخامس أدرس ظهور مصطلح تاريخ الثقافة في كل من حركة التأريخ في إسبانيا ومؤلفات المستعربين الإسبان قبل آسين بلاثيوس. من أوائل المؤرخين الإسبان الذين استخدموا هذا المصطلح رافائيل التاميرا كريبيا *Rafael Altamira y Crevea* (١٨٦٦-١٩٥١) وقد وظفه لمناقشة قضايا مثل علاقة المصطلح الجديد (تاريخ الثقافة) بالنماذج التقليدية في كتابة التاريخ التي ظهرت في العصور الوسطى وخاصة كتابات ابن خلدون. وهذه القضية ذاتها قد ناقشها آسين بلاثيوس. أما الفصل السادس، فأدرس فيه استخدام آسين بلاثيوس لمصطلح تاريخ الثقافة بوصفه إطارًا موضوعيًا لمشروعه الفكري. آسين بلاثيوس كان يرى أنه على المستعربين الإسبان أن يتبنوا هذا الاتجاه الجديد في التأريخ في دراساتهم عن تاريخ الأندلس، فيدرسون موضوعات مثل الأدب والتصوف والأديان والعلوم بدلًا من التركيز على التاريخ السياسي والحروب في تلك الفترة. لقد أكد آسين بلاثيوس أن استخدامه لمصطلح تاريخ الثقافة هو و أستاذه وزميله المستعرب خوليان ريبيرا يمثل تغييرًا مهمًا في تاريخ الاستعراب الإسباني لأنهم واكبوا هذا التطور في الدراسات التاريخية في أوربا في تلك الفترة ولم يكونوا بمعزل عنه.

أما **الباب الثالث** بعنوان "**تاريخ الأفكار في التقاليد الأوربية والإسبانية في القرنين التاسع عشر والعشرين وتطبيق آسين بلاثيوس له في أعماله**"، ويضم خمسة فصول، فقد خصصته لدراسة الإطار المنهجي للمشروع الفكري لآسين بلاثيوس الذي يمكن أن نلخصه في مصطلحين رئيسين: تاريخ الأفكار والتاريخ النقدي. في الفصل السابع درست كيف ظهر منهج تاريخ الأفكار في فروع مختلفة من العلوم والدراسات الإنسانية في كل من الأنثروبولوجيا وخاصة المدرسة الانتشارية الألمانية *Difusionismo alemán* عند فريتز جرايبنر *Fritz Graebner* (١٨٧٧-١٩٣٤) وفي الأدب المقارن خاصة عند المدرسة الفرنسية في كتابات فان تيجيم *Paul Van Tieghem* (١٨٧١-١٩٤٤) في علوم المنطق والفيزياء خاصة تفسير ليبنتز *Leibniz* (١٦٤٦-١٧١٦) لطبيعة حركة الأجسام وقانون الاستمرارية ، و أخيرا في دراسات النقد التاريخي عند ارنست رينان *Ernest Renan* (١٨٢٣-١٨٩٢). لقد درست مفهوم تاريخ الأفكار في كل من هذه العلوم والمجالات المعرفية لأن آسين بلاثيوس قد أشار إليهم بوصفهم مصادره عن مفهومه عن تاريخ الأفكار والنقد التاريخي وقانون الاستمرارية وحركة الأفكار عبر التاريخ وانتشارها. الفصل الثامن خصصته لدراسة تاريخ الأفكار كما بلورته التيارات الفلسفية المسيحية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي

عاصرها القسيس والمستعرب آسين بلاثيوس وتأثر بها وشكلت جزءًا كبيرًا من تصوره عن تلك حركة الأفكار بين الإسلام والمسيحية. في هذه الفترة كانت الكنيسة الكاثوليكية والبابا ليون الثالث عشر *Papa León XIII* يحاولون تجديد الفلسفة المدرسية وخاصة فلسفة القديس توماس الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) لكي تصلح للتطبيق في القرن التاسع عشر. رسالة البابا ليون الثالث عشر المعروفة بالأب الخالد *Aeternis Patris* (١٨٧٩) هي نص مركزي في هذا السياق لأنها توضح موقف الكنيسة من العلاقة ين القديم والجديد وأهمية القديم، في هذه الحالة الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر، في تجديد الفلسفة المسيحية في القرن التاسع عشر. وقد أشار آسين بلاثيوس إلى أن دراساته تتبنى ما طرحته هذه الرسالة من تجديد فلسفة القديس توماس الإكويني بتطبيق قواعد النقد التاريخي عليها وبيان أصولها وامتدادها عبر التاريخ.

الفصل التاسع خصصته لدراسة تاريخ الأفكار كما يظهر في كتابات اثنين من المفكرين الإسبان الذين أثروا بوضوح في مشروع آسين بلاثيوس. الأول هو المؤرخ مارثيلينو منندث بيلايو *MarcelinoMenéndez Pelayo* (١٨٦٥-١٩١٢) الذي أثر في جيل من الكتاب الإسبان ذوي الاتجاه المحافظ ، وخصوصًا في التركيز على الاتجاه القومي في كتاباتهم وإبراز دور إسبانيا في نقل العلوم إلى أوربا في العصور الوسطى وكذلك في إثبات هوية إسبانيا الكاثوليكية. الكاتب الثاني هو المستعرب خوليان ريبيرا تاراجو الذي مثل هو و آسين بلاثيوس جيلًا جديدًا من المستعربين الإسبان الذين درسوا الجوانب الثقافية في تاريخ الأندلس.

أما الفصل العاشر فقد درست فيه كيف طبق آسين بلاثيوس منهج تاريخ الأفكار في أعماله المختلفة، وكيف أفاد من النظريات التي ظهرت في الأنثروبولوجيا والأدب المقارن والفيزياء وعلوم المنطق في إرساء أساس علمي لكتاباته. لقد حللت كيف درس آسين بلاثيوس أربعة كتاب مسلمين وهم ابن عربي وابن رشد والغزالي وابن مسرة بمنهج تاريخ الأفكار أو النقد التاريخي والنتائج التي توصل إليها وكذلك الأهداف التي كان يريد أن يثبتها في دراساته.

الفصل الأخير خصصته لدراسة كتاب آسين بلاثيوس عن ابن حزم، وكيف قرأ آسين كتاب "الفِصل" لابن حزم بمنهج النقد التاريخي، وكيف عقد صلات بين نظريات ابن حزم في علم الكلام وكتابات القديس توماس الإكويني. لقد جعل آسين بلاثيوس كتابات توماس الإكويني امتدادًا لما كتبه ابن حزم في القرن الحادي عشر. لقد أثبت آسين عددًا كبيرًا من المقاربات والتشابهات بين فكر كل من الكاتبين المذكورين ولم ير أي اختلاف بينهم. أراد آسين بلاثيوس أن يثبت أن أصل الأفكار في المسيحية كان موجودًا في الإسلام وقد أخذ الإسلام هذه الأفكار عن الآباء المسيحيين في الشرق. في رأيه، الأفكار في المسيحية لم تختف قط ولكنها تمتعت بطبيعية أبدية تظهر في مختلف الأديان والبيئات.